أبعد من صدّام وبوش

صورة المثقف اليساريّ المعولم في مواجهة الحرب

. شمس الدين الكيلاني* .

في هذا الزمن الأمريكيّ الرديء، تكاثرتْ كالفطر إعلاناتُ البراءة من «العروبة» ومن رابطة «الوطن» في صفوف بعضِ مثقفينا، ولاسيما مَنْ كانوا في قديم الزمان أشدَّنا يسراويةً وفتنةً بالبروليتاريا وبالأممية على أشكالها (من الأُولى إلى العاشرة) وبالنضال ضدّ الإمبريالية! ولكنْ في الحالين لم يطرأ عليهم كثيرٌ من التبدلات. فقد طَلّقوا العروبةَ والأوطانَ قديمًا باسم الأممية والبروليتارية. وهم يطلّقونها الآن، على طريقة حازم صاغيّة المتهافتة «باي باي يا عروبة» و«باي باي يا وطن،» باسم العولمة الأمريكية الجارفة التي حَوّلت العالمَ (في رأيهم) إلى «قرية كونية» ومَكّنتِ الجميعَ من الدخول إليها - كأفراد على شكلِ مهاجرين، أو عن طريق شبكات الاتصالات العالمية، أو كمثقفين «كونيين» (وهذا أكثر إغراءً لهؤلاء المثقفين)، أو عَبْرَ أيّ كانتونٍ كان أو أيّ بقعة من الأرض مادامت العولمةُ أسقطتْ فكرةَ السيادة الوطنية والقومية من اعتبارها.

ولكنْ في مناخات الاضطرابات الكبرى التي يُفْترض أن تعيد الجميعَ إلى حقاق الأرض الصلبة، وبخاصّة أمام الاستنفار العالميّ والمحليّ والقوميّ لمواجهة احتمالات الحرب الأمريكية على العراق، يصبح للتفاصيل المتعلّقة بالوطن قيمةٌ خارقةٌ، وللدم ولاحتمالِ تساقطِ الضحايا مذاق خاصّ. هنا ينكفئ هؤلاء المثقفون على الذات، ويَصْطبغ مزاجُهم بنزعة طهرية، لا في ما يخصّ ولاءَهم للعوليّ وقيم النظام العالميّ الجديد ذي الإهاب الأميركيّ، بل تجاه ترّهات الجمهور الهائج وعواطفه الشعبوية الخرقاء! فهم يضيقون ذرعًا بصرخات هذا الجمهور لحماية العراق من الأذى والدمار: ذلك أنّهم - وهم المتبحّرون في العلم - واثقون بأنّ الحرب القادمة حربٌ على صدّام ونظامه البعثيّ، ولذا يَنْأون بأنفسهم عن «أوهام السوق» هذه. وحتى عندما تدفّق الناسُ إلى الشوارع في حركةٍ مليونيةٍ هائلةٍ مضادّةٍ للحرب تكاد أن تهتزّ لها أركانُ الدنيا السبعة، بما فيها أزقّةُ مدنهم، فقد حرص هؤلاء المثقفون على إظهار تفرُّدهم وتميُّزهم عن جلبة العامّة وعواطفهم السوقية، فتداعَوْا في بيروت منذ شهريْن وأَصْدروا بيانَهم الشهيرَ حرصًا منهم على طهريتهم من الاتّساخ من جلبة الشوارع التي قد تَظْهر فيها أحيانًا صورُ صدّام. ولكي لا تَخْتلط أصواتُهم بأصوات الغوغاء الصدّامية، طَلَعوا علينا بمعادلتهم الطهرية: لسنا مع صدّام ولا مع بوش. ودَعُوا صدّامًا إلى الاستقالة، متناغمين في ذلك مع ما تريده الولاياتُ المتحدة من تحميل مسؤولية الحرب برمّتها للرئيس العراقيّ ونظامِه، لا لإرادة الهيمنة الأمريكية على العالم، ومتناسين أننا لسنا بصدد انتخاباتٍ رئاسيةٍ أو شأنٍ داخليٍّ له مجالُه الخاصّ. فالعالم كله معنيٌّ الآن بمصير الحرب، وسياسةُ القوة يتمّ استخدامُها ضدّ العراق اليوم ولكنّها ستوجَّه إلى غيره غدًا، ورامسفيلد يهدِّد - على الطالع والنازل - باحتمال استعمال السلاح النوويّ. نحن، إذن، أمام شريعةِ غابٍ يجب كسرُها قبل أن تُدخِلَ العالَمَ كلَّه في دوّامة الفوضى تحت ضغط «قانون القوة» المنفلتِ من عقاله.

لكنّ بعض مثقفينا اليساريين القدامى والمعولمين الجدد حَرِصوا مرةً أخرى على إظهار تميُّزهم حتى في تظاهرهم. فنَظّموا تظاهرةً نخبويةً في بيروت أيضًا كي لا تَخْتلط شعاراتُهم «المختارة» ببيارق الدَّهماء. كما أنّ نخبويتَهم لا تَسمح لهم بالانخراط في التظاهرات الشعبية الكبرى مثل كلّ الملايين المتظاهرين في شوارع روما وباريس ولندن ونيويورك والمدن

* - كاتب سوريّ.

الغربية والإفريقية والآسيوية، والذين جَمَعَهم هدفٌ أخلاقيّ وسياسيّ كبير، ألاَ وهو منعُ وقوع كارثة الحرب، أما في ما عدا ذلك فهم مختلفون في كلّ شيء:

ـ فهناك مِنَ المتظاهرين في العالم، ولاسيّما من جماعات حقوق الإنسان، مَنْ يريد أن يَمْنع قيامَ مذبحة للعراقيين. والأميركان أنفسُهم يقدِّرون ضحايا الحرب القادمة بنصف مليون قتيل، وبما يماثلهم من الجرحى والمعوّقين، وبأضعافهم من المشرَّدين (علمًا بأنّ ضحايا العراقيين في حرب ١٩٩١ بلغ ١٩٠ ألف عراقيّ كانت نسبةُ النساء والأطفال فيهم ٤٠٪، وتلا الحربَ سقوطُ أكثر من ١،٥ مليون طفل عراقيّ من جرّاء العقوبات).

ـ وهناك مَنْ يتظاهر اهتمامًا منه بالبيئة والإنسان معًا.

ـ وثمة مَنْ يتظاهر ليَمْنع أمريكا من استعمارِ العراق، ومن ثم السيطرةِ على المنطقة العربية برمّتها سيادةً وبترولاً وبشرًا، لتستقوي بذلك على العالم أجمع.

ـ وهناك مَنْ يتظاهر ليَمْنع الكارثةَ التي ستؤدّي إلى إضعاف العرب لصالح سيادة الكيان الصهيونيّ بالتحالف مع الولايات المتحدة على المنطقة في إطار الـ «شرق أوسطية.» ومايزال المسؤولون العرب الذين خاضوا الحربَ ضدّ العراق إلى جانب أمريكا تحت اسم «تحرير الكويت» عام ١٩٩١ يَذْكرون كيف فوجئوا ـ بعد أن توهّموا أنّ أميركا ستجزيهم بحل سلميّ مشرِّف مع «إسرائيل» ـ بقول جايمس بيكر لهم: «إنّكم خسرتم الحربَ، وعليكم أن تَقْبلوا صيغةً للتسوية تناسب ميزانَ القوى الجديد.»

ـ وهناك مَنْ تظاهر خوفًا من تهديد التعايش الإسلاميّ ـ المسيحيّ؛ وقد قال توني بن في هذا الصدد في ٨ شباط (فبراير) عام ٢٠٠٣ في **الشرق الأوسط**: «لا أريد للعلاقات بين المسيحيين والمسلمين أن تصاب بمرارةٍ لمائة سنة مقبلة.»

ـ وهناك مَنْ شارك في التظاهرات حرصًا على استمرار تنظيم شرعة الأمم المتحدة للعلاقات الدولية، ولكي لا تنفلتَ القوةُ الأميركيةُ من عقالها، فتصبحَ الشرعةُ للقوة فحسب، ويَدْخُلَ العالَمُ في دوّامة الفوضى.

ـ وهناك مَنْ تظاهر لمساندةِ ما يتوهّمه من قرار عراقيّ مستقلّ.

ـ وربما هناك، أخيرًا، مَنْ تظاهر ضدّ الحرب ورفع صورةً لصدّام.

ولكنّ أيّاً كانت أسبابُ التظاهر فقد استوعبتْ شوارعُ المدن العالمية **كلَّ** هذه التيارات تحت جامعٍ واحدٍ كبيرٍ لا يعلو عليه أمرٌ آخر، ألاَ وهو محاولة المساهمة الأخلاقية في منع وقوع الحرب.

غير أنّ جماعتنا ـ أصحابَ الأممية قديمًا والعولمة الأمريكية حديثًا ـ لا يعجبهم هذا الخليطُ العجيبُ الكونيّ. لذا اختاروا السيرَ على حدة، كالملائكة من دون جوقةٍ مرتّلين. بل لعلّ بعضًا من مثقفينا هؤلاء رأى في الشعارات التي طرحتْها حركةُ الاحتجاج العالمية ضدّ الحرب ترّهاتٍ، وتفاصيلَ تافهةً، وأوهامًا قطيعيةً، أمام ما يُمْكن أن تتمخّض عنه الحربُ العتيدة من نشرٍ للديمقراطية والعولمة ومفرداتهما على ربوع العراق، ومن استئصالٍ لشأفة الثقافة التقليدية والقيمِ الاجتماعيةِ الأبويةِ وكلِّ ما تَكْرهه قلوبُ نخبتنا المعولمة. ونحن هنا لا نتحدث عن أمثال فؤاد عجمي الذي تجاوَزَ برنارد لويس في عدائه للعرب والمسلمين، وتجاوَزَ صقورَ الإدارة الأميركية في التبشير بالحرب وضرورتِها لغسل دماغ العرب وإدارتِهم السياسية من الإرث الماضي. وإنّما نحن نتحدث عن

١ ـ منير العكش، **حقّ التضحية بالآخر، أميركا وتاريخ الإبادات الجماعية**، ص ٣١.

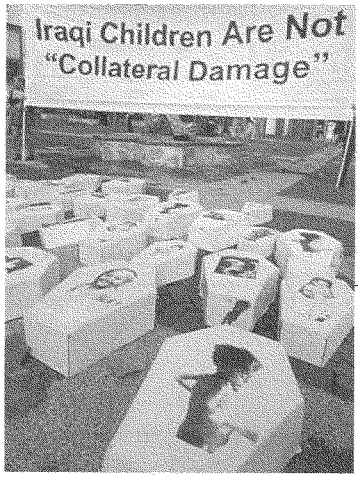

استوعبتْ شوارع المدن العالمية تيارات كثيرة تحت جامع واحد كبير لا يَعْلو عليه أمر آخر، وهو محاولة المساهمة الأخلاقية في منع وقوع الحرب

يساريينا القدامى ومعولمينا الجدد. وكان أحدهم قد كَتَبَ عام ١٩٩١، ونحن على أبواب الحرب آنئذ، في مجلة **الناقد** يهوِّن علينا الأمر بقوله «إنّ العرب لن يَخْسروا في هذه الحرب سوى نُظُمهم الاستبدادية فلماذا نخشى الحرب؟» ثم قامت الحرب ودمَّرتْ أميركا العراقَ، وقَتَلَتْ ١٩٠ ألف إنسانًا، وخَسر العربُ ثروتَهم المالية وقدراتِهم الاقتصاديةَ والعسكريةَ ووزنَهم العالميّ مع شرفهم وسيادتهم، ولم تقم للديمقراطية الموعودة قائمة.

واستمرّ الترويجُ لتلك الأوهام ذاتها بصدد هذه الحرب المحتملة، ومعها استمرّ التشويشُ على الصورة الفعلية للخطط الأمريكية ـ الإسرائيلية لبلادنا. فلقد بَشَّرنا العفيف الأخضر وأمثالُه، على الفضائيات وفي الصحف، بالنبوءات ذاتها. ذلك أنّ هذا الرجل، سليلَ الأممية الرابعة، الذي طَلَعَ علينا بعد عام ١٩٦٧ بثوريته الجارفة، متحفِّزًا للانقضاض على السلطات «البرجوازية الصغيرة» (وفي مقدِّمتها سلطةُ عبد الناصر) التي هي سببُ الهزيمة، لصالح ثورةٍ «شرق أوسطية» ببنادق «حرب الشعب» وعلى أنقاض الحروب النظامية، وحاول أن يعلِّمنا دروسَ الثورة «من كومونة باريس إلى مجازر عمان...» هذا الرجل نراه قد انتقل الآن إلى مواقع أخرى، وتبنّى مفرداتِ النظام العالميّ الجديد، واستمرّ في الدعوة إلى «شرق أوسطية» ولكنْ من نوعٍ آخر ترفرف عليه قيمُ العولمة ومفرداتُها الأمريكية، محتفظًا ـ من إرثه الثقافيّ السابق ـ بضِيقه بمفاهيم «الوطن» و«سيادةِ الأمة» و«الثقافة العربية الإسلامية» وبالدين ذاته. كما احتفظ أيضًا بالمزاج الذئبيّ نفسه، وبالعصابية ذاتها في تناوله للقضايا والتعصّب لها، وإنكارِ الآخر وإعدامه. وهو رغم ترويجه للعلمانية والديمقراطية وثقافة السلام لا مانع لديه من الوقوف مع أيّ زمرة عسكرية باسم «العلمانية» إنْ كان الهدفُ ضربَ التيار الإسلاميّ واستئصالَه (وهو ما يحصل فعلاً). ولقد سانده ووقف إلى جواره عددٌ من الأسماء التي لها شهرتُها، كوضّاح شرارة وبعضِ رموز منظمة العمل الشيوعيّ، وانقلب معه الكثيرُ منهم. لكنّه ظلّ يتميّز عن الجميع بصراحته، ونزعتِه العدوانيةِ الشرسة تجاه خصومه، وعصابيتِه في تناوله للأفكار والأقوال، ناسيًا أنّ ما يقوله الآن بتلك اللهجة الحماسية اليقينية هو على النقيض ممّا كان يبشِّر به سابقًا بالحماسة ذاتها. فهو المبشِّر الأكبر بثقافة السلام لكي نتكيّف مع العدوان الإسرائيليّ ومع توسّعه، بدل ثقافة الصراع بما فيها الصراعُ الطبقيّ. ووقف هازئًا ممن يقف ضد الحرب: فهو لايزال يَحْفظ عن ماركس قولَه في الحرب إنّها حاضنةٌ للديمقراطية والعولمة والحداثة!

نجد الالتباسَ نفسَه قد سيطر على صاحب مقال في جريدة **السفير** بتاريخ ٧/ ٣/ ٢٠٠٣، وعنوانُه «ليُهْزَم وحدَه» ـ ويَقْصد بذلك صدّام حسين. بل هو يقول بالحرف الواحد: «الحرب آتية. إذا وقعتْ فلتقعْ على رأس صدّام ونظامه [!]» غير أنّ هذا لا يمكن أن يتحقّق إلاّ في الأحلام، وقد يَحْدث في الواقع إذا تصوَّرنا أنّ صدّام حسين والنظامَ العراقيّ معلّقان في نقطةٍ ما في سماء العراق الصافية، بحيث تَنْدفع الصواريخُ الأميركية التي زنَتُها عشرةُ أطنان باتجاههما فقط ! ولكنّ الواقع هو أنّ احتلال العراق هو هزيمة شنيعة للعرب، بمن فيهم العراقيون. ويكفي أن نقرأ تقريرَ الأمم المتحدة عن أوضاع العراقيين الكارثية إذا قامت الحرب لنقدِّر حجمَ الكارثة. بل ستَشْمل الهزيمةُ أولئك العراقيين الذين سيرشّون على قوات الاحتلال الأميركيّ الأرزَّ والوردَ بسبب مظالم صدّام. إنّ المسألة، إذن، ليست قصيدةَ تشفٍّ في حقِّ جنرال، ولا فشةَ خلقٍ، بل قضيةٌ تنال مصيرَ أمة ـ لا أدري إنْ كان لها اعتبارٌ عند أصحابنا المعولمين ـ ومصيرَ العالم برمّته.

كما أنّ صاحب المقال نفسه، شأنه في ذلك شأن المسؤولين العرب، يَفْترض حتميةَ الحرب، وهو بهذا يقلّل من أهمية أيّ جهدٍ مناهضٍ لها، هازئًا من إرادة عشرات الملايين من البشر الذين يحاولون ويجتهدون لدرء الحرب. فلا يبقى لنا ـ والحالةُ هذه ـ سوى الانتظار أمام التلفاز كي لا تفوتَنا ساعةُ الانقضاض الأميركيّ على صدّام «وحده،» قبل أن يبدأ الحلمُ «الديمقراطيُّ» العتيد في الصدوح!

إنّ أميركا تَعْزف على كراهية العرب للاستبداد، بما فيه الاستبدادُ الصدّاميّ، لِتعطيَ لحربها القادمة مذاقَ «التحرير.» لكنّ أقوالها لن تنطلي إلاّ على القليل من البشر. ذلك أنّ أفعالها على الأرض العربية شاهدٌ على دعمها للمستبدّين العرب طوال قرن، وشاهدٌ على دعمها لجرائم الكيان الصهيونيّ وهيمنتِه واحتلالِه للأرض العربية. فضلاً عن أنّ خططها الراهنة وأغراضَها من الحرب واضحةٌ ومصرَّح بها ولا تحتاج إلى كثير من التمحيص والبراهين.

إنّ هذه الحرب التي أُعِدَّت لنا هي أبعدُ من صدّام حسين ونظامه، بل وأبعدُ من بوش نفسه. فهي تحاول أن تؤسِّس لمصيرٍ آخر للعرب لنصف قرن مقبل، وتحاول بها أميركا ترتيبَ العالم على مقاس هيمنتها السافرة. غير أنّ تذكير مثقفينا المعولين هؤلاء بالأوطان، ومصائرِ الأمم، وانعكاسِ الحرب على المصير الفلسطينيّ والعربيّ والعراقيّ، سيجعلهم يضيقون ذرعًا بهذه «الترهّات» التي تبدو لهم مستحاثاتٍ من الحقبة القومية التي فات أوانُها وانقضى. فهم لا يتعاملون إلا مع «الحقائق» و«الوقائع.»

والحال أنّ الوقائع أمامَهم تفجّ الرأس!

حلب